السنة السادسة العدد ٦١ ـ ربيع الأول ـ ١٤٠٢ هـ ـ يناير ١٩٨١ م

الدوحة

مجلة شهرية ثقافية جامعة

ملتقى الابداع العربي والثقافة الانسانية

من وحي القرن الهجري الجديد

الشيخ متولي الشعراوي

كتاب الشهر

كيف تتغلب على الألم بدون طبيب؟

الشاعر البحريني

إبراهيم العريض

من الرسم بالألوان..

إلى الرسم بثلاث لغات

مدينة ماتزال تؤدى ضريبة إسلام الأندلس وعروبتها

سبتة المغربية

عبد الكريم غلاب

عندما تتضافر الأسطورة مع حقائق التاريخ لتقدم صورة المأساة !

ترى هل دخلت سبته نفق التاريخ الذى دخلت منه أشبيلية وغرناطة ؟!

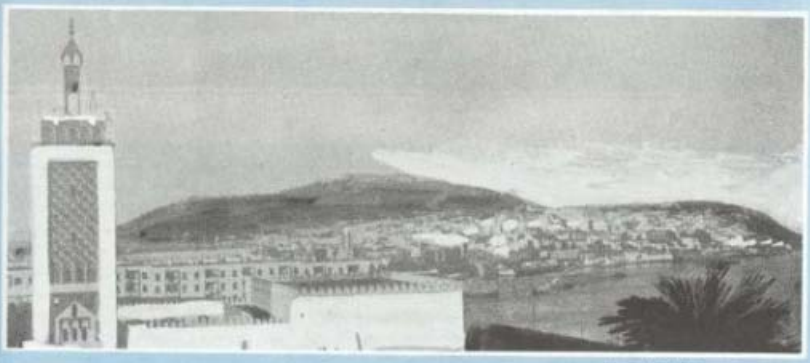

مسجد جديد ـ وهو الأثر الاسلامى بها .

كلما عرجت على شمال المغرب انتقلت ان أزور المدينة الأسيرة التى ما تزال تؤدى ضريبة الاندلس وعروبتها . لا أدرى ما يدفع بى إلى اقتحام «الحدود» والوقوف فى صف طويل امد جواز سفرى إلى شرطة «الحدود» المغربية وأسجل رقم سيارتى واكتب اقرارا بما معى من مال ومتاع ، لأقف مرة أخرى بعد بضعة امتار عند شرطة «الحدود» الاسبانيين ورجال الجمارك يختمون جواز سفرى ويسجلون رقم السيارة ، وقد يبحثون ما بها من منقولات حتى يأذنوا بالزيارة القصيرة .

ولكنى اتحمل مرارا هذه الإجراءات التى تفصل المغرب عن مدينته الأسيرة لأرضى رغبة تلح فى اعماقى لعلها : الاطمئنان على المدينة العربية المسلمة التى ملأت الدنيا وشغلت الناس .

كنت ذات يوم فى قرية سياحية من هذه القرى الجميلة التى ترصع الشاطىء المغربى الجميل بين تطوان وسبتة (٤٠ كيلو مترا) كان معى صديق العمر الاستاذ عبد المجيد بن جلون فاقترحت ان نقوم بزيارة خاطفة إلى «سبتة» لارضاء الهاجس الذى يتحرك فى نفسى دائما ، اجاب بصرامة :

ـ لا ... لن ادخلها حتى تتحرر . وما يزال مصرا على الا يزور احدى بوابات الوطن العربى وعلى قلعتها علم اجنبى .

ولكنى وقد وجدت نفسى فى نهاية هذا الصيف على نفس الشاطىء الجميل اعتبرت من العقوق الا اعرج على ديار سبتة ، رغم كل الاجراءات المريرة التى تفصلنى عن المدينة دون ان يفصلنى عنها بحر او جبل او نهر او «حدود» حقيقية .

سبتة المغربية

الميدان الرئيسي بمدينة سبتة .

اجتزت «الصراط غير المستقيم» ، ورفع الحاجز الخشبي وإذا بي في بلد آخر ، ذي شبعية اوروبية له علم ولغة ودين وعملة وجيش . اختلفت عني اللغة فلم يفهموا عني ولم افهم عنهم . استعنت انا ـ كما استعان بعضهم ـ بلغة اجنبية لنتفاهم ، ووقفت امام شباك بنك لاغير العملة حتى اشرب قهوة او ادخل مطعما او اقف امام بكان . ويصرخ بي شرطي مرور : ان اسرع ولا تتردد في «ملتقى طريقين» ، واعتذر لاني «غريب» ... نعم غريب في بلدي ، ولاني لا افهم اللغة التي تحدث إلي بها قبل ان يصرخ باعصابه الهائجة ، وافصحت لهيجانه وانا اصرخ «مومينتو» ... دقيقة صبر ...

فيزيد هياجا وهو يستغرب ـ فيما يبدو ـ ان اطلب الصبر في ملتقى ثلاثة شوارع كان على ان اختار بينها دون تردد .

دخلت المدينة ـ زوجتي وانا ـ نجوب شوارعها فاذا بها «سوتا» لا سبتة كما يعرفها التاريخ ، وكما يسميها المغاربة والعرب والمسلمون عموما ، وكما يريد اسمها مع اسم الاف المواطنين «السبتي» المنبثين في مختلف انحاء المغرب من العيون حتى طنجة مرورا بمراكش وفاس وأجدني في مدينة لا تختلف عن «مالقة» وفي المغرب الاف من المواطنين يحملون اسم «المالقي» ـ او قرطبة ـ وغرناطة وفي المغرب الاف من المواطنين يحملون اسم «القرطبي» «والغرناطي» .

ترى هل دخلت سبتة نفس التاريخ الذي دخلت منه اشبيلية وغرناطة وقرطبة ومالقة ؟ .

العرب هناك

هذه في اوربا ، في الاندلس السليبة ، وسبتتنا في عمق مغربنا العربي المسلم . ولكن اثار المدينة محيت ولا ترى فيها غير المدينة الاوربية الحديثة ، وغير المظهر الأوربي الحديث وغير اللغة الاسبانية والعلم الاسباني والجندي الاسباني . غير ان القلعة ما تزال تشهد بما بناه المغاربة من قلاع للدفاع عن مدينتهم وحمايتها . وعلى القلعة العلم الاسباني وفي القلعة الجنود الاسبانيون .

وتتجاذب وسط المدينة الجميل المطل على خليج سبتة الرائع المشرف على جزء من زقاق العبور الذي استخدمه طارق بن زياد قبل ثلاثة عشر قرنا . وتجوس في احياء جانبية فتصادفك عربية بملابسها الريفية تتحدث اللغة العربية ، وتتكلم كما لو كانت تلغي من حسابها بضعة قرون خلت ومدينتها مستعمرة ، ويصادفك عربي بتكم ويتاجر ويبيع العملة سرا أو في شبه سر . بضعة الاف من مواطنينا يشتغلون في الاعمال الجانبية الدنيا : حراس سيارات ، تجار خضر وفواكه وعاديات وهدايا بسيطة وعملة ، دكاكين عربية شبه فوضوية كل ما فيها ينبيء بانها عربية .

لا يخونك الحدس حينما تستنتج من جولتك الأولى في المدينة ـ وسطها واطرافها ـ ان سكان البلاد الاصليين يعيشون على الهامش ، لا تكاد تجد في احيائهم مدرسة او ناديا لا تفتش الحياة في هذه الأحياء كما لعلها تفريك في احياء السادة الذين اصبحوا يملكون المدينة ويعتبرونها اسبانية .

● عاشت سبتة كعاصمة علمية ونضالية فى تاريخ المغرب

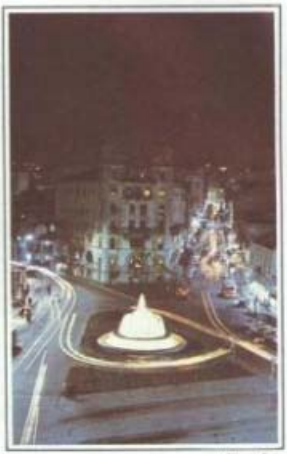

سبتة فى الليل .

منظر من الاستاد الرياضى فى المدينة .

السكان العرب هناك ليست لهم هوية لا هم مغاربة يتمتعون بالحقوق المدنية للمواطنين ، يتعلمون فى المدارس التى تشرف عليها وزارة التربية الوطنية المغربية يمثلون فى المجالس البلدية والبرلمان ، ولا هم اسبانيون لهم مثلوهم فى الكورتيس ، ويتعلمون فى المدرسة الأسبانية ويوظفون فى الادارة الأسبانية

ومع ذلك فصلابة عروبتهم وإسلامهم ما تزال تحتفظ لهم بلغتهم وعقيدتهم وحتى ملابسهم وتقاليدهم العربية الإسلامية ، فى جو عنصرى عدوانى يواجههم بهم سكان المدينة ، الاغلبية التى يحميها الجيش الأسبانى بضعة قرون من الاحتلال .

المدينة المغربية التى اصبحت اسبانية تقتعد على الراس الشرقى للبوغاز . وهى تماثل طنجة التى تتربع الراس الغربى من اقصى شمال المغرب . ومنها تنحدر شرقا إلى جبال الريف التى تتوج هامة المغرب ، وتطل منه على البحر الأبيض ، ومنها تنحدر غربا إلى تطوان ـ إحدى عواصم المغرب الكبرى ـ وتبعد عنها نحو ٤٠ كيلو مترا ثم إلى طنجة التى تبعد عن تطوان نحو ٦٠ كيلومترا .

ومن مركزها الجغرافى تستمد مركزها الستراتيجى . تشرف على البوغاز ، بل هى احدى بواباته . برزت فى البحر فكونت شبه جزيرة تحتضن خلجانا طبيعية مما جعل منها ميناء كان من اعظم موانىء البحر الأبيض . والذى يمتلك طنجة وسبتة يستطيع ان يتحكم فى البحر الأبيض . وقد تحكم المغرب منهما قرونا من تاريخه . ومنهما انطلق الاسلام والعروبة إلى أوربا بعد الأندلس

ومنهما حاول البرتغاليون والأسبانيون وقبلهما الفينيقيون والرومان السيطرة على شمال القارة الافريقية وتطويق البحر الأبيض .

ويعود التاريخ بسبتة إلى أيام الفينيقيين ففى مكانها اسسوا مدينة (ابيلا) ، ولم يهتد المؤرخون العرب إلى أصل تسميتها ، ولو انهم ـ على عادتهم ـ اشتقوا من اسمها اسم شخص سموه «سبت» وقالوا انه ابن سام بن نوح . ومن هذه الأسطورة نقلوا احاديث ـ لاشك انها موضوعة ـ عن النبى دعا لها بالبركة والنصر .

ولكن البركة الحقيقية التى حلت بالمدينة المغربية العتيقة انها كانت مجازا للعرب المسلمين إلى الأندلس . فقد كان بحكمها على عهد الفتح العربى للمغرب «يوليان الغمارى» ـ قبيلة غمارة من القبائل المشهورة فى المغرب ـ تحت سلطة الامبراطور البيزنطى قسطنطين الرابع . فلما فتح عقبة بن نافع المغرب انضم يوليان إليه فاقره على مدينته . سنة ٦٨٢ م . ولا شك انه ساعد على تجديد الحملة التى قادها طارق بن زياد على الضفة الاخرى من البحر . وبذلك كانت سبتة وطنجة سبيل العرب إلى «طريفة» والصخرة الكبرى التى حملت اسم طارق ـ وما تزال ـ ومنهما إلى قلب أوربا حتى بواتييه .

عاصمة علمية

عاشت سبتة كعاصمة علمية ونضالية فى تاريخ المغرب . وكانت صلة وصل بين المغرب والاندلس أيام ازدهار

حصون اسبانية مواجهة للمغرب .

الحياة السياسية والحضارية والثقافية في القطرين اللذين وحد بينهما حكم المرابطين والموحدين منذ اجتاز يوسف ابن تاشفين الزقاق لانقاذ الاندلس من السقوط في يد الفونس السادس سنة ٤٧٩ هـ حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م .

اسهمت سبتة وابناؤها في النشاط السياسي والثقافي والحضاري للمغرب ، ومنها انتشرت الثقافة العربية والاسلامية وتبادلت مع الاندلس نشاطا ثقافيا ملحوظا ، كانت صلة الوصل في الميدان الثقافي بين الاندلس والمغرب . وتميزت بطابع الحضارتين المغربية والاندلسية في الفكر والفن والحياة الاجتماعية . وتخرج منها سياسيون وعلماء وادباء وشعراء كانت لهم مكانة علمية كبرى ، ولبعضهم مكانة علمية دولية . الجغرافي العربي الاول (الشريف الادريسي) من ابناء سبتة .

القاضي عياض اليحصبي الكبير ، محمد ابن رشيد الرحالة الكبير ، ابن سبعين الفيلسوف المعروف ، الشريف السبتي ، عبد المهيمن الحضرمي ، مالك بن المرحل الشاعر الكبير ، عائلة العزفي منهم الحكام والامراء والعلماء والادباء ، عبد الرحمن الكتامي ، وابن غازي الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الغرضي وابو الحسن السبتي وابنته المحدثة ام المجد مريم وابو اسحق الانصاري وابو الحسن المليوي . كل هؤلاء وغيرهم كثير انجبتهم مدينة سبتة الاسيرة . كما انجبت عديدا من المفكرين والصوفية والمناضلين الذين استشهدوا دفاعا عن المدينة وعن المغرب كله . ويذكر المؤرخون ان المدينة كانت تضم نحوا من ٦٢ خزانة كتب . وعددا كبيرا من الربط والزوايا . وكان الرباط مدرسة للعلم ومركزا لتكوين العلماء والمجاهدين . كما كانت مدينة تعج بمظاهر الحضارة الاقتصادية والاجتماعية .

في هذه الفترة خاض المغرب ثلاث معارك تاريخية نيابة عن المسلمين والعرب للحفاظ على عروبة الاندلس والمغرب العربي ولابقاء على الاسلام اربعة قرون اخرى في الاندلس :

اولاها : معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ بقيادة يوسف بن تاشفين ، اعظم ملك في دولة المرابطين الذي وحد الاندلس مع المغرب ، وانهى خرافة الهجوم القشتالي على ممالك ملوك الطوائف ، واوقف زحف الالفونش في حملات قوية توالت طيلة خمس سنوات .

وكانت سبتة هي المدينة التي انطلقت منها قوات يوسف بن تاشفين ، فلعبت نفس الدور الذي لعبته زمن الفتح الاسلامي للاندلس .

والثانية : معركة الأرك . وقد قادها يعقوب المنصور الموحدي سنة ٥٩١ هـ وفيها استرجع وحدة الاندلس مع المغرب بعد ان مزقتها اطماع امراء صغار كان بعضهم يستعين بالعدو ضد البعض في سبيل اقامة إمارة صغيرة على مدينة او اقليم .

وقد سبق هذه المعركة الكبرى معارك ثانوية خاضها الموحدون ضد الزحف الصليبي على الاندلس .

والثالثة : معركة خاضها يعقوب المريني ضد القشتاليين سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م فاوقف الزحف الصليبي مرة اخرى الذي استهدف اشبيلية وغرناطة والحصون القريبة من منطقتهما .

لعبت سبتة في كل المعارك التي خاضها المغرب ضد المد الصليبي دورا رئيسيا والمعارك الثلاث التي تحدثنا عنها ليست الا نماذج منها .

سبتة هذه المدينة التي كانت تحتل مركزها الحضاري والعلمي والثقافي والسياسي والستراتيجي في تاريخ المغرب وتاريخ البحر الابيض ، كانت مثار تطلع لخصوم العرب والمسلمين التاريخيين منذ الفتح العربي للاندلس .

المخطط الاسباني البرتغالي

وقد كانت حملة الاسترجاع التي قامت بها اسبانيا والبرتغال لشبه الجزيرة الايبيرية والتي انتهت بسقوط غرناطة ، كانت هذه الحملة ضمن خطة استراتيجية تستهدف منع العرب والمسلمين من ان يعودوا إلى اوربا . لم تقم بهذه الحملة الدولتان الايبيريتان فحسب ، ولكن ساهمت اوربا كلها وعلى راسها الكنيسة الكاثوليكية في روما في التخطيط والتنفيذ معنى ذلك ان الحروب الصليبية التي شنت في شرق الوطن العربي هي نفسها التي شنت في غرب الوطن العربي ، وان الكنيسة التي باركت ملوك واباطرة اوربا للهجوم على بيت المقدس واحتلال فلسطين هي التي باركت ملوك ورؤساء دولتي ايبيريا للهجوم على المغرب العربي .

حاول المغرب استرجاع سبتة بكل الوسائل .. دون جدوى !

وهكذا كان المخطط الاسباني البرتغالي هو احتلال المغرب العربي جميعه تمهيدا لاحتلال افريقيا . وإذا كانت فكرة تكوين الامبراطورية البرتغالية والاسبانية قد بدأت منذ وصية ايزابيلا الأولى الكاثوليكية باسترداد الأندلس ، فان المغرب كان هو المعبر لتكوين هذه الامبراطورية .

ومن الواضح أن الامبراطوريتين الأسبانية والبرتغالية اللتين امتدتا إلى قلب افريقيا وإلى آسيا وإلى امريكا اللاتينية لم يكن الهدف منهما اقتصاديا فحسب ، على غرار ما كانت الامبراطورية الانجليزية والفرنسية ، وإنما كان إلى جانب ذلك عسكريا دينيا ، اى للدفاع عن المسيحية ضد الاسلام ، حتى لا يعود إلى شبه الجزيرة ، وطريقه هو المغرب .

وقد اتفقت اسبانيا مع البرتغال على اقتسام المنطقة فكان غربها للبرتغال ومشرقها لاسبانيا بما فيها الجزائر وتونس . وكانت سبتة أحد الموانىء العديدة التى كانت من حصة البرتغال تليها طنجة على الطرف الغربى من راس المغرب البوغازى ثم تنزل خريطة الاحتلال مع الشاطىء الأطلسى : القصر الصغير ، وأصيلة ، والعرائش ، والمهدية والدار البيضاء (انفا) والجديدة ، واسفى ، واكادير ، والشواطىء الصحراوية حتى مدينة الداخلة (قبلا سيسنيروس) وبدأت الحملة على سبتة وتم احتلالها سنة ١٤١٥ م - ٨١٨ هـ وتوالت الحملات البرتغالية على الشواطىء المغربية لزيد من مائة سنة عانى المغرب فيها حروبا طاحنة دفاعية عن نفسه وعقيدته ولغته . وحرر كل الشواطىء حيث هزم البرتغال هزائم منكرة كان أبرزها هزيمة وادى المخازن

كيف تم احتلال سبتة ؟

تتضافر الأسطورة مع حقائق التاريخ لتقدم صورة المأساة . تقول احداث التاريخ : إن سبتة كانت اقوى مركز فى البحر الأبيض المتوسط نفذ إليها البواخر من كل انحاء البحر . وكانت الباب الرئيسى للمغرب ، منها تبحر كل البواخر إلى المراكز التجارية التى كانت تتعامل مع المغرب - وكان مركزا تجاريا مهما بما ينتج من مواد فلاحية (من الحبوب حتى قصب السكر) ومواد معدنية مهمة - كما كانت ميناء عسكريا مهما على شاطئه تقف البواخر التى كانت تحمى المغرب من اى تدخل اجنبى ومنه تبحر البواخر التى نقلت العروبة والاسلام إلى قلب أوربا وحمت المنطقة قرونا عديدة . وحملت التجارة كما حملت البحارة والجنود لحماية غرب البحر الأبيض فى عهد قوة العرب فى المغرب ، ولاسترجاع الاسرى المسلمين الذين كانت تأسرهم سفن القرصنة الاوربية .

وتقول احداث التاريخ أن البرتغاليين تعاهدوا مع حاكم سبتة على استغلال هذا الميناء لقاء خراج معلوم فى كل سنة . فلما ضمنوا ذلك استغلوه ليوجهوا حربهم ضد المغرب من خلال سبتة .

وتقول احداث التاريخ أن خون خوان ملك البرتغال استعد للاستيلاء على سبتة ثلاث سنوات وحاصرها ست سنوات كاملات وهاجمها بقيادته وقيادة ثلاثة من ابنائه باسطول قوى من ٢٠٠ سفينة حربية . وكان الجيش الذى هاجمها يبلغ ٥٠ الف جندى (والمبالغة فى العدد من شيم المؤرخين العرب ...) .

وتقول الاسطورة أن البرتغاليين حملوا إلى الميناء صناديق على انها مليئة بالبضائع ، واستغلوا يوم الجمعة - يوم عطلة وصلاة - فخرج من الصناديق ٤٠٠٠ جندى استولوا على المدينة بسرعة . ولم يستطع السكان ولا الدولة أن تواجههم بعد الاستيلاء .

ويضيف التاريخ ان سكان المدينة انتدبوا وفدا كبيرا من الرجال والنساء ليستصرخ الملك أبا سعيد عثمان حتى يهب للدفاع عن المدينة الأسيرة ، وكانوا يلبسون المسوح السود والوبر وجلود الماعز والاحذية السوداء حزنا وكمدا على احتلال المدينة واحتقارا لانفسهم لانهم لم يستطيعوا ان يدافعوا عن مدينتهم .

حقائق التاريخ لا تنفى الاسطورة فالحصار الذى دام سنوات استعان بالحيلة لينفذ عملية الاحتلال فى ساعات واحداث التاريخ الحديث (حرب النكبة) تؤكد امكانية تضافر الحيلة مع العمل العسكرى .

وبدأت الحملة لاسترجاع سبتة - موضوع هذا البحث - منذ احتلالها خاض المغرب من اجل استرجاعها حروبا بدأت فى سنة ١٤٩٧ م وكانت اخرها حرب تطوان سنة ١٨٦٠ م وحاصر المغرب المدينة ٩١ مرة كان أطولها الحصار الذى ضربه السلطان إسماعيل فى القرن السابع عشر والثامن عشر استمر ٣٣ سنة من (١٦٩٤ - ١٧٢٧) وقد كتب السلطان إلى البرلمان البريطانى رسالة فى الموضوع قال فيها : « اننا لم نحاصر مدينة سبتة الا لانها توجد فى ارضنا وهى على ضفة بوغازنا وتكون جزءا من مملكتنا ، ولانها كانت دائما وابدا تحت حكمنا وسيادتنا » .

وقد هددت اسبانيا المغرب اكثر من مرة باعلان الحرب ضده اذا فكر بحاصر سبتة . ومن ذلك التهديد الذى تلقاه المغرب فى عهد عبد الرحمن بن هشام سنة ١٨٤٤ . بل إن الحرب اعلنت على المغرب فعلا سنة ١٧٧٤ حينما اكد العاهل المغربى محمد بن عبد الله فى رسالة إلى ملك اسبانيا كارلوس الثالث بانه عازم على استرجاع سبتة ومليلية وبقية الجيوب المغربية . واعلنت مرة أخرى سنة ١٧٩١ حينما بعث سلطان المغرب اليزيد بسفيره محمد بن عثمان لمطالبة كارلوس الرابع بالتخلى عن المدن المغربية المحتلة .

وكذلك يمكن ان نقول إن المغرب استعمل مختلف الوسائل الدبلوماسية والسياسية والعسكرية لاسترجاع سبتة ولكن الخط العائر للمدينة العربية ابى الا ان تتعثر جهود استرجاعها ولو بعد بيع قرن من استقلال المغرب .

الرباط - عبد الكريم غلاب